مالك بن الريب

حين انتصر الاسلام في الجزيرة العربية خرج العرب المسلمون من جزيرتهم لنشر دينهم وللجاهد في سبيل وكان شعراء الفتوحات الموفقة يتغنون بشجاعتهم وبسلات فرسانهم وينشدون اناشيد الانتصار وشعراء الفتح كثيرون اشهرهم مالك بن الريب واعشى همدان وثابت قطنه وكان هولاء بعد ان فارقوا أوطانهم وابتعدوا عن عشائرهم وابنائهم يذكرون ديارهم ويحنون إلى اهلهم فكان الشعر الحنين إلى الوطن نموذجاً في الاصالة وصدق العواطف والرقة والعذوبة ومالك هو من بني مازن مولده ونشأته في بادية تميم في البصرة واخبار حياته الاولى مجهولة وفي اخباره أنه كان رجلاً فقير الحال يعيش عيشة الشظف والكفاف وذلك ما دفعه إلى التمرد على حكم بني أمية فمال إلى التسعلك والاعتماد على الغزو والاغارة سبيلاً إلى تحقيق وجوده وكسب قوته وبن الريب فارساً شجاعاً قاد الغارات على القوافل وقطع طرقها متحدياً الحكام الامويين وهو يقود مجموعة من الصعاليك الذين يتميزون بالقوة والجراء وسرعة الجري وتحمل الاهوال وكلهم ذو سخط ونقمة وتمرد وقع مالك في قبضة مروان بن الحكم ولكنه يقتل حارسه ويفر إلى البحرين ويلقه سعيد بن عثمان قائد جيش معاوية ويقنعه بالاقلاع عن حياة التسعلك وان يضمن له ما يريد وهنا يشترك معه في الفتوحات الاسلامية ويبلى بلاء عظيم في خرسان وعندما وصل إلى موضع يقال له (الطبسان) مرض مالك واشتدة به العلة ومات فيها قبل ان يعود إلى وطنه واهله سنة (57 هـ). إذا كان مالك قد بدأ حياته متمردٍ صعلوكٍ فإنه رجلاً صالحاً مؤمناً حريصاً على الجهاد ويدور شعره في موضوعات الفخر والهجاء والوصف والحنين ولنقرأ معاً التي قالها ضمن قصيدته اليائية المشهورة إذ قال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركبُ عرضه وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

لقد كان في أهل الغضا لو دنا الغضا مزارُ ولكن الغضا ليس دانيا

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وأصبحت في ارض الاعادي بعدما أراني عن ارض الاعادي قاصيا

تقول ابنتي لما رأت طول غربتي سفارك هذا تاركي لاأباليا

فالله دري يوم أترك طائعا بني بأعلى الرقمتين ومالياً

معاني المفردات:

ليت شعري:ليتني أعلم

الغضا :شجر ينبت في الرمل

أزجي :أسوق

القلاص النواجيا:النياق السراع

الركاب:الابل وجمعها ركائب0

فلله دري:تعجب من نفسه

الرقمتان:موضع في دياره

التعليق النقدي: عانى مالك من ثقل الغربة ووطأة الوحدة والبعد عن الاهل والابناء وامتلأت نفسه شوقا الى ارضه وديارة بعد ان شط به المزار ونأت الدار وكان في قلبه أكثر من أمل إلى لقاء الاحبة والعشيرة وكم تمنى هذا اللقاء وهو بعيد، وكم اشتدت به اللهفة إلى العودة إلى وطنه وملاعب صباه؟ وها هو مالك يبدأ قصيدته الخالدة بهذا السؤال المعبر عن شوقه الجامح لأن يبيت ولو ليلة واحدة في مضارب أهله، وان يعود إلى عهده الاول يوم كان يسوق نياقه في دروب باديته. لقد استحدم الشاعر (ليت) مرات متتابعة ليعبر من خلالها عن أمانيه في العودة فالذكريات تتابع عليه، فتخيل ذلك اليوم الذي خرج فيه مغترباً مبتعداً. ان شجر الغضا هو رمز للوطن عند مالك، لذلك نجد الشاعر يكرر هذه اللفظة (الغضا) ليقرر ما يختلج في قلبه من حب وشوق وحنين، وغرض الشاعر من ترديدها مقصود منه اشاعة الحنين والتشوق وتقوية النغم في أبياته ولا أظننا نستثقل من الشاعر ان يكرر (ليت) و (الغضا) لأنه من خلال هاتين اللفظتين ينفث آهاته، وينفس عن ضيفه، ويخفف من حسرته ولهفته. ان الشاعر غير آسف على مافعل حين أهتدى ونزع ثوب الضلال ووافق سعيداً على مشاركته في حرب الفتح, ورافقه في طريق الذهاب والاياب، ولكنه أبدا في ذكرى دائمة، وأمل لا ينقطع للعودة والالتقاء بالاهل والابناء وليس هذا حسب، بل انه ليشتط على نفسه بالعتاب والتأنيث لأنه يفكر ملياً قبل أن يقرر الرحيل، وأن العجب لياخده فيتساءل: كيف أطاع ابن عثمان وترك ابناءه وكل ما يملك؟ إنه حساب صادق مع النفس، وماذلك الألعمق شعوره بالمسؤولية تجاه أهله وأبنائه، فلقد خلف وراءه محبين يسائلون عن عودته النهار، ويبكيهم طول السفار. أن مالكاً في ساعة موته المر لا يجد من يؤنسه في وحدته، وهو يفكر فيمن سيبكيه فلا يجد هناك قريباً من غير سيفه ورمحه وحصانه، انها عدة الفارس، وهذه الرفقة الطويلة بينه وبينها جعلته ينزلها من نفسه منزل العاقل الذي يحس بموت صاحبه وفراقه، انها وحدها ستبكيه وتألم لموته. ان الحنين إلى الوطن يمتزج لدى الشعر بندب النفس، فها هو يتطلع لشوق لأن يكحل ناظريه برؤية (سهيل) النجم الذي لا يرى إلا في ناحية خراسان. ولا يلبث تطلعه للعودة بالخفوت والضعف، بعد أن ايقن بعيداً وحيداً، فراح يدعو من معه لأن يحفروا له فبره. وجميل هذا الايقاع في قوله ((من الأرض ذات الغرض)). والشاعر وهو يجود بنفسه لا يفوته أن يرفع صوته بالفخر وابائه. انها لحظات حسرة وألم وشكوى صامته لما صار اليه . اذ يشعر ابن الريب بدنو الاجل واستحالة العودة ، وأنه لا بد ملاق الموت وهو غريب ، ينقطع لديه الامل وتسوده روح الخيبة ويخضع لسلطان الايام. لقد وفق مالك إلى رسم هذه الصورة المعبرة عن احاسيسه النفسية، وما يختلج في نفس المغترب الوحيد من اسى وحزن في لحظات الحياة الاخيرة ولعل العمق والصدق والاصالة التي تميزت بها هذه القصيدة فيما

ضمنها الشعر من افكار انسانية وانفعالات حية، لعل ذلك كله يكمن وراء خلودها على ممر الايام والعصور، ان هذه الابيات درس في حب الوطن ودعوة مخلصة للالتصاق بترابه والتعلق به في ساعات الحياة والموت.